

كيف يكون العبد شكوراً؟



عن أبي جعفر الباقر (ع) قال: "كان رسول الله (ص) عند عائشة ليلاً فقلت: يا رسول الله تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: يا عائشة! ألا أكون عبد الله شكوراً؟ قال: وكان رسول الله (ص) يقوم على أطراف أصابع رجليه فأنزل الله - سبحانه وتعالى - (طه) * مَا أَرْزَكَنَا إِلَيْنَا الْقُرْآنَ لِتَذَكَّرَ (طه / 1-2). حقيقة الشكر: الشكر هو عبارة عن تقدير نعمة المنعم، وتظهر آثار هذا التقدير في القلب بصورة الخضوع والخشوع والمحبة والخشية وأمثالها، وعلى اللسان بصورة الثناء والمدح والحمد، وفي الأفعال والأعمال بصورة الطاعة واستعمال الجوارح في رضا المنعم. يقول المحقق الطوسي "قدس سره": "الشكر أشرف الأعمال وأفضلها، واعلم أن" الشكر مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية وله أركان ثلاثة: الأول: معرفة المنعم وصفاته اللاقنة به، ومعرفة النعمة من حيث إنها نعمة ولا تتم تلك المعرفة إلا بـأن" يعرف أن" النعم كلها جليها وخفيها من الله سبحانه وأنه المنعم الحقيقي وأن" الأوساط كلهم منقادون لحكمه مسخرون لأمره. الثاني: الحال التي هي ثمرة تلك المعرفة، وهي الخضوع والتواضع والسرور بالنعم، من حيث إنها هدية دالة على عنایة المنعم بك وعلامة ذلك أن لا تفرح من الدنيا إلا بما يوجب القرب منه. الثالث: العمل الذي هو ثمرة تلك الحال فإن تلك الحال إذا حصلت في القلب حصل فيه نشاط للعمل الموجب للقرب منه، وهذا العمل يتعلق بالقلب واللسان والجوارح. أما عمل القلب فالقصد إلى تعظيمه وتحميده ومجيده، والتفكير في صنائعه وأفعاله وآثار لطفه، والعزم على إيصال

الخير والإحسان إلى كافة خلقه، وأما عمل اللسان فإظهار ذلك المقصود بالتحميد والتمجيد والتسبيح والتهليل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى غير ذلك، وأما عمل الجوارح فاستعمال نعمه الظاهرة والباطنة في طاعته وعبادته، والتوكى من الاستعانة بها في معصيته ومخالفته كاستعمال العين في مطالعة مصنوعاته، وتلاوة كتابه، وتذكر العلوم المأثورة من الأنبياء والأوصياء - عليهم السلام "وكذا سائر الجوارح". كيف يكون الشكر؟ إن "شكراً" نعم الحق المتعالي سبحانه، الظاهرة منها والباطنية، من المسؤوليات الازمة للعبودية، فعل كل شخص أن يشكر ربه سبحانه. علينا أن نعرف أن شكر النعم يكون بحسب مقدرتنا المتيسرة وهي محدودة، فلا أحد من المخلوقين يستطيع أن يؤدي حق شكره تعالى. والسبب في ذلك أن كمال الشكر يتبع كمال التعرف على المنعم وإحسانه، وحيث أن أحداً لم يعرف حق معرفته، لم يستطع أحد النهوض بحق شكره. إن "منتهى ما يصل إليه الإنسان من الشكر هو أن يعرف عجزه عن النهوض بحق شكره تعالى، كما أن غاية العبودية في معرفة الإنسان بعجزه عن القيام بحق العبودية له تعالى. ومن هذا المنطلق اعترف الرسول الأكرم (ص) بالعجز، مع أن شخصاً لم يشكر ربه ولم يعبده بمثل شكر ذلك الوجود المقدس وعبوديته. وبعد أن عرفنا عجزنا، فما هو المتيسر من الشكر المطلوب؟ يكون العبد شكوراً، إذا علم ارتباط الخلق بالحق، وعلم انبساط رحمة الحق عليه من أوّل ظهوره إلى ختامه، علم بداية الوجود ونهايته على ما هو عليه. فما دامت حقيقة سريان ألوهية الحق لم تنتقض في قلب العبد بعد ولم يؤمن بأذنه لا مؤثر في الوجود إلا إله، ولا تزال غبرة الشرك والشك عالقة في قلبه، لا يستطيع أن يؤدي شكر الحق المتعالي بالشكل المطلوب. ومثل هذه المعرفة لا تحصل إلا للخُلُّـصـ من أولياء اللهـ الذين كان أشرفهم وأفضلهم خاتم الأنبياء (ص)، كما يقول الحق المتعالي: (وَقَاتِلُـمـ مـنـ عـبـادـيـ الشـكـورـ) (سبأ / 13). إن "الذي يعتقد أن" المخلوقات تتأثر بصورة مستقلة، ولا يرجع النعم إلى ولد النعم ومصدرها، يكون كافراً بنعم الحق المتعالي، إن "هـ قد نـحتـ أـصـنـاـمـ وـجـعـلـ لـكـلـ وـاحـدـ مـنـهـ دـورـاـ مـؤـثـرـاـ". قد ينسب الأفعال إلى نفسه وقد يتحدث عن فعالية طبائع عالم الكون، ويجرد الحق عن التصرف ويقول بأن يد الله مغلولة: (غُلَّـتـ أـيـدـيـهـمـ وـلـعـنـدـوـاـ بـمـاـ قـالـوـاـ) (المائدة / 64). مراتب الشكر: إن "شكراً" العباد للمنعم تعالى، يختلف مستوياته ومراتبه بين فرد وآخر، وهناك عوامل تؤثر في اختلاف المراتب، منها: - ما ذكرناه فيما سبق من أن شكر المنعم تابع لمعرفته، فكلما ازداد الإنسان معرفة بالمنعم ازدادت مرتبة شكره له. فمقدار المعرفة يؤثر في مستوى الشكر ودرجته. - الشكر هو الثناء على النعم، وهو تابع لطبيعة النعمة، فالنعم الظاهرة تختلف مرتبة شكرها عن النعم الباطنية. ومرتبة شكر النعم التي من نوع العلوم والمعارف تختلف عن مرتبة شكر النعم التي تعتبر فيضاً إلهياً متجلياً للإنسان، وهذا كلما كانت

النعم أعمق كلما اختلفت طبيعة الشكر. وإذا عرفنا أن هذه النعم بجميع مراتبها غير متوفرة سوى عند القليل من العباد، يتضح أن "النهوض بأداء الشكر على جميع المستويات وبأعلى المراتب غير متوفر سوى للقليل من العباد المخلصين الذين وصلوا إلى الكمالات الظاهرة والباطنية... مقامات الشكر: الشكر يُعتبر عادة من المقامات العامة، ويذكر في سياقه كدليل عليه ضرورة مكافأة المنعم على إنعمه، ولكن الحقيقة أن أولياء الله خصوصاً الكامل منهم لهم شأن آخر في موضوع الشكر، فللشكر درجات ومقامات، وذكروا في الدرجة العالية منه وهي درجة مشاهدة العبد لجمال المنعم والتأمل فيه ثلاث مقامات: الأول: أن يشاهد المنعم عبوديةٌ فيستعظم نعمته، بمعنى أنّه عندما يشاهد هذه النعمة يشاهدها مشاهدة العبد الذليل لمولاه، ويستغرق في آداب الحضور ولا يرى لنفسه اعتباراً، فيستعظم النعمة ويجد نفسه غير مؤهل لها. الثاني: أن يشاهد حباً فيستحلي منه الشدة، بمعنى أنّه يشاهد مشاهدة الصديق لصديقه، فيستغرق في جمال هذا المحبوب، ويرى جميع أفعاله محبوبة يستمتع بها حتى وإن كانت شاقة ومجهدة. الثالث: أن يشهده مشهوداً إلا ذات الحق، من دون أن يرى نعمةً أو يشاهد شدة. إنَّ جميع المقامات هي من السبل العامة في بداية الأمر، ولكنها في النهاية تتخصص لتصبح للخالق بل للكمالين. فضيلة الشكر في الروايات: فلنتم الكلام بذلك بعض أحاديث الشكر: عن أبي عبد الله (ع): "قال رسول الله (ص): الطاعم الشاكِر له من الأجر لصائم المحتسب، والمعافى الشاكِر له من أجر كأجر المبتلى الصابر. والمعطى الشاكِر له من الأجر كأجر المحروم القانع". وعنده (ع): "ثلاث لا يضر معهن شيء: الدعاء عند الكرب، والاستغفار على الذنوب، والشكُر عند النعمة". وعنده (ع): "إنَّ الرجل منكم ليشرب الشربة من الماء فيوجب الله بها الجنة. ثم قال: إنَّه ليأخذ الإناء فيضعه على فيه فيسمى ثم" يشرب، فينحيه وهو يشتته فيحمد الله، ثم يعود فيشرب ثم ينحيه فيحمد الله، ثم يعود فيشرب، ثم ينحيه فيحمد الله، فيوجب الله عزوجل بها له الجنة". وحمد الله يساوي الشكر، وقد ورد في كثير من الروايات أن من قال "الحمد لله" فقد شكر الله. كما روى عن الصادق (ع): "شكر كل نعمة وإن عظمت أن تحمد الله عزوجل عليها". عن حماد بن عثمان قال: "خرج أبو عبد الله (ع) من المسجد وقد صاعت دابته فقال: لئن ردتها الله على لأش Hernا حق شكره. قال: لما أن أُتي بها، فقال: الحمد لله. فقال له قائل: جعلت فداك أليس قلت: لأش Hernا حق شكره؟ فقال أبو عبد الله (ع): "ألم تسمعني قلت: الحمد لله". يفهم من هذا الحديث أن حمد الله سبحانه من أفضل وسائل الشكر باللسان. إن من آثار الشكر، زيادة النعمة ووفرها، كما صرَّ بذلك الكتاب الكريم: (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَ زَكُومْ) (إبراهيم/7). فعن الإمام الصادق (ع): "من أُعطي الشكر أُعطي الزيادة، يقول الله عزوجل: (لَئِنْ شَكَرْتُمْ

لأزـيدـ زـكـمـ ° . ▶ المـصـدـرـ: كـتـابـ الـأـخـلـاقـ (ـمـنـ الـأـرـبـعـينـ حـدـيـثـاـ)